

المخطوطات المهاجرة في مكتبة تيسمسي دراسة كوديكولوجية

* د. سلطفي طببي

نقصد بالمخوطات المهاجرة جملة المخطوطات الموجودة في مكتبة معينة، والتي وفدت إليها من بلد آخر من بلدان المعمور.. وهجرة المخطوط في صورتها السليمة هي الانتقال الكلي للمخطوطة في وعائهما المادي ومضمونها.. ثم إننا قد نتحدث عن هجرة المخطوط بوصفه محتوى عبر الإقراء، أو السمع، أو النسخ، أو الإجازة، أو ما شابه هذا من وسائل نقل المعرفة بالشكل الذي كان معروفا في القديم..

ولا ننسى أن العلماء الذين كانوا يصنفون الكتب في هذا المجال العلمي أو ذاك لم يكونوا مستقرين دائما في بلدانهم بل إن هجرة العلماء وطلبة العلم كانت ديدنا يسم الأعصار السالفة، وكان الأولى يعودون منهم إلى أوطانهم الأصلية يعودون محملين بما اقتنوا من نوادر الأسفار.. يقول أحمد شوقي بنين في هذا الباب: "واشتري الشيخ محمد بن عبد السلام الناصري المتوفى سنة 1240هـ في

* أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة ابن زهر ، المغرب

رحلته إلى استانبول مؤلفات منها كتاب "الكمال" للحافظ عبد الغني المقدسي في مجلدين بشمن بخس، وذلك برسم خزانة الزاوية. وكانت الكتب تقتني، حسب صاحب "المزايا.." "من مكة، والمدينة، ومصر، وطرابلس، وتونس..".¹

فالعلم مرتبط بالشيخوخ، والشيخوخ موزعون في كل البلدان الإسلامية بصرف النظر عن الحدود الجغرافية والسياسية .. وهكذا فإننا إذا ما أنعمنا النظر في كل المكتبات التراثية في العالم ألفينا أنها مكونة من خليط غير متجانس من الدفاتر والمخطوطات التي تشهد صورها المادية ومعطياتها الحفريّة عن حضارات متنوعة وأعراف عديدة.. فالمخطوط هو أولاً صورة عن الكاتب وثقافته، وهو من جهة أخرى انعكاس لواقع اقتصادي واجتماعي محدد، تعكسه بنيته المادية الصميمة... .

ومكتبة تيدسي التي سنتحدث عنها، بحول الله، في هذه المشاركة، هي كسائر المكتبات التراثية الأخرى المعروفة بنوادر الدفاتر والأسفار.² وهي مرتبطة في نشأتها بالدولة السعودية. قال عنها وعن زاويتها المختار السوسي رحمه الله: "... نسبة إلى قرية تيدسي، وهناك كانت بيعة الأول من السعديين، فمر هناك محمد عظيم وعلم وأدب، ولا تزال خزانة الأسرة محفوظة، وقد انقرض العلم أخيراً هناك فصارت الخزانة من الموعودات".³

وتكونت المكتبة المذكورة من النسخ، والهبات، والشراء، والوقف... وتضم من كل فن طرف؛ فيها المصاحف، وكتب الآداب، والبلاغة، والنحو، والعروض، والتراجم، والتاريخ، والتصوف، والتوحيد، والفقه، وأصول الفقه، والسيرة النبوية

إلخ.. وتحدها الآن ثلاث قبائل مشهورة هي سندالة من الجهة الشرقية والجنوبية، وهوارة من الشمال، و إدامنو التابعة لإقليم اشتوكة أيت بها من الغرب .

وقد أسسها سيدي محمد بن مبارك الأقاوي المتوفى في أوائل القرن العاشر الهجري، وكان قد أمر قبائل سوس بمباغة السعديين وتوجد الآن في مكانها التاريخي المذكور. وهي تبعد عن مدينة أكادير بحوالي ستين كيلومترا ، ودون زيارتها صعوبات كثيرة استمرت إلى عهدها نحن⁴ .

وتحدث عنها المختار السوسي في المنتصف الأول من القرن العشرين قائلا : "وأذكر أني كنت تواعدت معه —مسعود الوفقاوي⁵ — أن نزور تيديسي لرؤيه خزانتها ، واشترط علي أن لا يركب إلا بغلته ، فإذا به أرسل إلي أن السيد عبد السلام القيم على الخزانة رفض الزيارة ، محتاجا بأن فلانا الدرقاوي لا يدخل مقامنا نحن أصحاب مولاي أحمد.." ⁶

والراجح أن صعوبة الاستفادة من هذه المكتبة إنما يعود إلى تقييد الأحفاد التيديسين بوقفية الفقيه عبد السلام بن القائد الحنفي التيديسي الذي حصر الاستفادة من المكتبة على التيديسين فقط دون غيرهم ..

جاء في هذه الوقافية ما يلي : "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآلله وصحابه وسلم: أشهدنا بحول الله وقوته الفقيه العالمة السيد عبد السلام بن القائد الحنفي التيديسي السنداли أنه حبس خزانته للكتب المشتملة على أنواع الفنون العلمية على العلماء والطلبة من أبنائه وأبناء أبنائه ما تناسلا وامتدت فروعهم دون غيرهم من الأبناء . فإن قضى الباري جل علاه

بانقضاء العلماء منهم، فليتولى حفظها وصيانتها من أظهر الله فيه الصلاح لحفظها وصيانتها إلى أن يظهر الله فيهم من فيهم الأهلية بفضلة. وأنه يوصي ويؤكد جميع من صار من الأولاد آمنا عليها أن لا يعبر لأي أحد كيما كان نوعه، وكيفما كانت مرتبته كتابا ولو ورقة واحدة منه . فمن رغب من علماء المسلمين المطالعة والاستفادة فلا يرى بأسا أن يسعده ويقفوا معه إلى أن يشغلي غليله. ويوصيهم كذلك أن يتقوى الوعيد الشديد الوارد في كتمان العلم . وقد جعل هذا الحبس حبساما تاما مؤبدا سرموا إلى يوم الدين . فمن سعى في تغييره، أو تبديله ، أو تحريفه ، فالله حسيبه وسائله وولي الانتقام منه" وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون⁷ "شهد على إشهاده في تاريخ جمادى الأولى عام 1332 ه عبد الله بن عبد الرحمن التملي رعاه الله وبعد ربه الحسن بن محمد وفقه الله آمين".⁸ والمكتبة الآن في أحلك أيامها، إذ تراجع عدد دفاترها، فلم يبق منها إلا حوالي سبعمائة وثلاثين مخطوطا، وطالتها الرطوبة، وبلغت فيها الأرضية والعث مبلغا خطيرا في الافتراض.. وهي تضم مخطوطات محلية النسخ أو التأليف من مثل:

- كتاب قواعد الإسلام لسليمان بن خلف الباقي الذي انتسخه في الزاوية التيدسية أحمد بن محمد بن مسعود التيدسي في ذي الحجة عام 996هـ،
- ومن الرسالة القيروانية، التي انتسخها الشيخ مبارك بن إبراهيم التيدسي، وأيسر المسالك إلى ألفية ابن مالك محمد العربي الأدوزي⁹ ،

- ونسخة من الأسماء المبهمة انتسخها علي بن أحمد التشكيلي في 1293هـ،
- ونسخة من كتاب المعرفة على مراد الربوبية ،¹⁰ الذي نسخه إبراهيم بن سعيد بن داود الشطاحي سنة 984 هـ ،
- ونسخة من مؤلف في العقيدة¹¹ ، لأبي عثمان بن سعيد بن أبي عبد الله العقابي المنتسخة سنة 909 هـ ،
- ودفاتر أخرى عديدة تعاورت على نسخها شيوخ الأسرة التيدسية نفسها، مثل عبد القادر بن محمد التيدسي، ومحمد بن أحمد التيدسي، وأحمد بن أحمد التيدسي .. وتضم، من جهة أخرى، مخطوطات أجنبية وفدت إليها تحديداً من البلدان الإسلامية الأخرى من مثل الجزائر، وتونس، وليبيا، وتركيا، وفلسطين، ومصر، وإيران، والأندلس، والسودان..

ومن هذه المخطوطات المهاجرة في هذه المكتبة العتيقة أذكر نسخة من كتاب شرح جمع الجامع في أصول الفقه والدين¹² بلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي (ت 791هـ/864م)، ونسخة من صحيح البخاري¹³ لمحمد بن إسماعيل البخاري، نسخها عبد الله بن محمد بن عبد الله النبهاني، ونسخة من فتح الباري لابن حجر العسقلاني¹⁴، ونسخة من تبصرة الحكماء في أصول الأقضية ومناهج الحكماء¹⁵، لبرهان الدين أبي الوفاء إبراهيم بن فردون (ت 799هـ)، ونسخة من شرح عقيدة السنوسي¹⁶ ، لمحمد بن محمد بن إبراهيم التلمساني (ت 897هـ/1492م)، ونسخة من صغرى السنوسي¹⁷ لمحمد بن يوسف السنوسي

(ت895هـ)، ونسخة من منظومة التوحيد¹⁸ المعروفة بـ"الجزائرية في العقائد الإيمانية"، للشيخ الإمام القدوة أبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري، (ت884هـ 1479 م)، ونسخة من شرح مورد الظمآن، محمد بن إبراهيم الشريشي (ت718هـ)، ونسخة من أحكام السهو في الصلاة¹⁹، لأبي الحسن علي بن يحيى الماليقي، وغير هذا كثير من عيون الدفاتر الموجودة في هذه الخزانة العتيقة التي كانت منارة العلم على عهد السعديين، كما ذكر ذلك المختار السوسي رحمه الله، وما زالت إلى الآن قبلة للباحثين والأساتذة المتخصصين في التراث ..

ونحن، في هذه المشاركة، إنما سنركز على عينة من الأوعية ذات الأصل الجزائري، توخيًا لإضاءة موضوع هذا الملتقى العلمي الذي ينفض الغبار عن إسهام الجزائر في بناء حضارة إسلامية عتيقة من خلال الكتاب المخطوط، وقد انتخبنا نماذج مما ناوله إيانا الفقيه المصطفى بن العربي الأنصاري التیدسی وفقه الله، فنحن سنتحدث بحول الله عن نسخة من منظومة التوحيد لإمام أبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري²⁰، ونسخة من تبصرة الحكم في أصول الأقضية ومناهج الحكم، لبرهان الدين أبي الوفاء إبراهيم بن فردون²¹ (باعتبار أصل هذا الرجل)، ونسختين من صغرى السنوسى²²، ونسخة من شرح عقيدة السنوسى لمحمد بن محمد بن إبراهيم التلمساني، وإنما اختارنا هذه النماذج لانتفاء معلومات النسخة في حرد المتن، ولاختلاف الخط الذي كتب به عن الخط السوسي المألف في هذا البلد الموجود في جنوب المغرب، فأيقينا أنها مهاجرة علمًا أن الهجرة عندنا تنطبق على المحتوى، وعلى الوعاء، وقد ننطلق من أصل المؤلف كما

هو الأمر بالنسبة لابن فردون مثلا .. وسيكون تناولنا لهذه المادة مبنيا على حفريات الكتاب المخطوط أو ما يسمى بعلم المخطوطات ، وقبل أن نتحدث عن هذه العينة من النسخ الوافدة إلى هذه المكتبة نود أن نلقي نظرة موجزة عن علم المخطوطات.

مفهوم علم المخطوطات :

إنه المرادف للمصطلح المُعَرب " كوديكولوجيا" Codicologie وقد عرفناه في معجم مصطلحات المخطوط العربي بما يلي: " علم المخطوط بالمفهوم الحديث هو دراسة المخطوط باعتباره قطعة مادية، والمصطلح من وضع العالم الفرنسي ألفونس دان (A. Dain) الكلمة مركبة من اللفظة اللاتينية " كوديكس " Codex أي كتاب ومن اللفظة اليونانية " لوجوس " بمعنى دراسة وقد دخلت المعجم الفرنسي سنة 1959م²³. وقد يراد به عند القدماء مفهوم الورقة²⁴، أو كل ما يتعلق بالمخطوطات من كتابة، وصناعة، وتجارة، وترميم، وما إلى ذلك ..

إنه العلم الذي يتناول الكتاب المخطوط من حيث مكونات الورق، أو المادة المكتوب فيها، والطي وصناعة الكراريس، والترتيب (أي مسألة كتابة النص في علاقته الزمنية بطي الفرخة أو صناعة الكراسة)، وتركيب الصفحات (أو دراسة التناسبات الممكنة بين درج أو أدراج النص وطرر الصفحة)²⁵، والخزم، والنسطير، والنمنمة، والزخرفة، والتذهيب، والتسفير، أو التجليل بتعبير أهل المشرق ... وهو من جهة أخرى العلم الذي يعني بالنساخة في المخطوط

transcription بكل ما تحمله الكلمة "نسخة"²⁶ من معنى، إذ إن هذا المصطلح يعني بداية النص، ونهاية النص، وحرد المتن، والوقف، والإجازة، والقراءة، وقيد التملك، وقيد البيع، وقيد الشراء، والأدعية، والعبارات الشاردة، والفوائد، وقيود الصيانة، والسلوحات أو الفضاءات الاستهلالية المزخرفة والمكتوبة، وعنوانين الأبواب، وعنوانين الفصول، وأنواع الترقيم، والحلق، والمحو، والطلس، والإحالة، والتشطيب، وما إلى ذلك .. وأود أن أشير إلى أن هذا العلم إنما يكتمل باتساع رقعة المادة المدرستة ، ويتراجع إلى مستوى الوصف بعكس ذلك ..

وقد زرت من جديد مكتبة تيدسي في بداية شتنبر 2007 م، برفقة الفقيهين أحمد فاضل وإبراهيم أيت بولكسوت²⁷، ولم أتمكن من الوقوف بالمخوطات ملء الوقت الذي يكفيني، كما لم يرخص لي بالتصوير لبعض الصفحات اللافتة للنظر، وإنما كان القيم يحمل إلى المخطوطة تلو المخطوطة وفق الطلب، وهو الأمر الذي يفسر اقتراب هذه الدراسة من الملاحظة الوصفية الأولية..

التناول الكوديكولوجي للنسخ المدرستة :

الأصل في التناول الكوديكولوجي أن يحصل هناك تركيب بناء على أقصى ما يمكن من النسخ. فالدراسة المادية للمخطوطة تنطلق من الملاحظة لأكبر نسبة من المخطوطات، لتصل إلى بلورة القوانين التي تفسر خصوصيات هذه المجموعة أو تلك من المخطوطات، بيد أن مكتبة تيدسي هي مكتبة عائلية منحصرة على أحفاد العائلة التيدسية.

لذلك فإن القيم الحالي السيد المصطفى بن العربي الأنصاري التيدسي كان محاصرا بتوصيات العائلة وبتوقيعاتها، وبأداء واجبه المدروس تجاه الصحابة الذين يزورون المكتبة الجزائرية في العقائد الإيمانية في التوحيد لأبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري: هو كتاب ضمن مجموع مكتوب على ورق قماشي لين و صامد يعود إلى حوالي ثلاثة قرون، نلاحظ فيها احترام المساحة المكتوبة lajustification الصغرى، تليها طرة الرأس، ثم الطرة الخارجية، وأخيرا طرة الذيل أو الطرة السفلية، مما يدل على أن نسخ هذا الكتاب قد تم بواسطة الآلة الوراقية المعروفة قد يم بالمسطرة (بضم الميم وفتح السين وتشديد الطاء وكسرها)، والخط يجمع بين مميزات الخط المغربي الجزائري²⁸ (المتشبه في أغلب جزئياته بالخط المغربي الفاسي)، والخط الصحراوي المائل إلى الشحانة، ويتشكل الكتاب من خماسيات، وظهرت المنظومة في حوالي عشرين صفحة متتشابهة في مساحتها المكتوبة، إذ هي عادة عبارة عن درج واحد للكتاب لا يفصله إلى صورة الفراغ بين السطرين.. وليس هناك ذكر للناسخ وتاريخ النسخ، ونلاحظ فيها وجود طرر على هامش الأبيات هي عبارة عن لواحق للمنظومة من مثل هذا البيت الموجود في الخامس:

يذاد عنه أناس لا خلاق لهم قد قابلوا الدين بالتغيير والبدل

وتسمى هذه الإضافات في الهوامش باللحق، وتدرس في إطار التقاييد النصية للنسخة. وقد كتبت فصول هذه المنظومة بالأحمر، وضبط روتها الذي هو حرف اللام بشكل ثخين، والمنظومة في 360 بيت من بحر البسيط أولها:

قال الشيخ الإمام الفقيه قدوة المتقين الولي العلامة عالم الأعلام السيد أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري رحمه الله ورضي عنه ونفعنا به وبأمثاله بمنه وفضله...

وآخرها:

| | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| كذا الأوامر لا تختصى لممثل | إن النوى جاءت غير واحدة |
| واسلك ... وإن جهلت سل | فلازم العلماء العاملين به |
| فما عن الحق جعل الله من بدل | وثق بمولاك لا تبغي به بدلًا |
| هذا السبيل إليه أقرب السبل | واضرع عليه بصدق فهو ذو كرم |
| مالي سواك عليك اليوم متتكل | وقل إلهي يا من لا شريك له |
| منك الهدایة للتوفيق للعمل | فامنن على توفيق ونيل تقى |

ومن فصول هذه المنظومة القيمة، حكم التقليد وقواعد التوحيد، وفي أول الواجبات، والاستدلال بالنظر في المخطوطات، وفي ما يجب من الوجود للإله المعبود، وفي وجوب الوحدانية لخالق البرية، وفيما يستحيل على الولي الحليل، وفي التنبيه على ما يوجب التشبيه، وفي ثبوت صفاته تعالى المعنوية، وفي الحياة والسمع والبصر، وفي العلم، وفي الإدراة إلخ، وقد كتبت هذه العناوين بلون ثخين أحمر مخالف للمنظومة، وجاء في بداية النص ما يأتي:

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| سبحانه جل عن شبه وعن مثل | الحمد لله وهو الواحد الأزل |
| أجلها نعم الإيمان بالرسل | فليس يحصى الذي لله من نعم |

لو كان يشكر طول الدهر لم يصل
وصحبه مع سلام طيب حفل
بالاحتلام وعقل غير مختبل
من ذا من الخلق يقضي شكر واهبها
ثم الصلاة على خير الورى أبدا
وبعد فالعلم بالتوحيد مفترض
وقد استعمل في ترقيم هذه المنظومة، التي هي الكتاب الخامس ضمن
مجموع، نظام التعقيبة أو الرقاص أو الوصلة، وهو نظام معروف منذ القديم يتخلل
في كتابة أول الصفحة الموالية في أسفل الصفحة السابقة.. وكانت تكتب كلمة أو
كلمتان في ربط صفحات هذه المنظومة بشكل أفقى... وهناك إلى جانب هذه
المنظومة كتب أخرى في هذا المجموع منها كتاب الإعلام للقاضي عياض،
ومنظومة في الفرائض، ومنظومة في التوحيد، وكتاب في قواعد الإسلام لأبي الوليد
الباقي...

صغرى السنوسى لمحمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسى...

توجد من هذا الكتاب المعروف بأم البراهين في مكتبة تيديسي نسختان؛ نسخة
عريقة ضمن مجموع، والراجح أنها الأصل²⁹، وأنها وافدة من بلد آخر، ونسخة
 محلية النسخة³⁰، وهي مأخوذة، فيما يبدو، عن النسخة الأولى، ونلاحظ أن
هذه النسخة الأولى قد عيّنت بعض كلماتها، واستغلقت بعض حروفها، في حين
أن النسخة الثانية تامة وواضحة بشكل لافت للنظر، وانطلاقاً من أن القاعدة
الفيلولوجية تحدث على أن النص المستغلق والمبهم أوثق من النص المصحح
والواضح، وأن الدرس الفيلولوجي الحديث رفض الأخذ بالمفهوم التقليدي للنسخة
الأم، ورفض الأخذ بالمقابلة بالشكل الذي يصنعه المحققون العرب، وجعل النسخة

الجيدة هي النسخة المليئة بالأخطاء يقول "ألفونس دان" : "ليس هناك أحسن نسخة، وإذا ما شئنا البحث عنها فهي تلك التي ترك الأخطاء بدون تصحيح، وتجعلنا نعود إلى المرحلة الأولى للتغييرات..."³¹.

وفي الاتجاه نفسه، يكون الناشر العالم أسوأ بكثير من الناشر ذي الثقافة الأولية الذي يتمسك بقراءة التموزج حرفاً.. فإننا نعتقد بأصالة النسخة الموجودة في المجموع الأول³²، والمفتقدة إلى اسم الناشر وتاريخ النسخ، جاء في أوها:

" قال الشيخ الفقيه العالم العلامة الولي الصالح سيدى محمد بن يوسف السنوسي رحمه الله ونفعنا به آمين والحمد لله والصلوة على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وإمام المسلمين ورضي الله تعالى على أصحاب رسول الله أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أعلم أن الحكم العقلي ينحصر في ثلاثة أقسام الوجوب والاستحالة والجواز..."

وفي النسخة المأخوذة عنها نجد تعبيراً مخالفًا لفهود صيغة الأمر "أعلم أن الحكم العقلي.." نجد التعبير الآتي "وبعد: فهذه جمل مختصرة يخرج المكلف بفهمها إن شاء الله تعالى من التقليد المختلف في إيمان صاحبه إلى النظر الصحيح المجمع على إيمان صاحبه، وذلك أن تعلم أولاً.."، وفي اللحظة التي نجد فيها النسخة الأولى مفتقدة إلى اسم الناشر وتاريخ النسخ، فإننا نجد ما يلي في النسخة الثانية: "كملت بحمد الله وحسن عونه في يوم الأحد التاسع والعشرين زمن صفر عام خمسة وثلاثين وألف بتidiسي على يد كاتبه لنفسه ولمن شاء الله

من بعده عبد المؤمن بن إبراهيم بن مسعود بن موسى بن محمد بن الحسن،" ثم إننا نلاحظ أن مقاييس النسختين مختلف؛ فالأولى مقاييسها هو 19 x 15 سم، والثانية مقاييسها 22x18 سم ، مما يعني أن المخترفين لصناعة الكراريس مختلفان، ولا ينتميان للمنطقة نفسها.

ثم إن الخط الذي كتبت به النسختان مختلف؛ فال الأول صحراوي ثخين مشكول وملون، مما يعطي الانطباع بأنه منحدر من الصحراء الجزائرية الكبرى أو من موريتانيا، والثاني مغربي سوسي دقيق ومشكول... أما عن نوع الكراريس في الكتابين، فالكتاب الأول مكون من خماسيات، وهي كراريس مكونة من خمس صفائح مزدوجة، وهي معمول بها في صناعة المخطوط العربي، في حين أن الكتاب الثاني مكون من سباعيات وهي كراريس مكونة من سبع صفائح مزدوجة، مما يدل أن طريقة الصنع مختلفة ويؤكد اندادهما من مخترفين مختلفين.

ونلاحظ أن تركيب الصفحات قد تم احترامه في النسخة المهاجرة بشكل لافت للنظر، مما يدل على أن النسخة قد تعقبت المسطرة³³، فهناك أولاً الطرة الداخلية la petite fond، وهي أصغر الطرر كلها، ثم تأتي بعدها طرة الرأس la gouttière la marge de la marge supérieure، ثم الطرة الخارجية marge supérieure وأخيراً تأتي طرة الذيل la marge inférieure وهي أكبر الطرر.

وفيما يخص التسفيير فنحن نلاحظ أنه لا أثر للتسفيير الأصلي في هذا المخطوط، بل هناك فقط تسفير دخيل مفتقد إلى خصوصيات التسفيير الوراقي المزود باللسان والتربجة... وكتب في نهاية الكتاب مجموعة من الغوائد النصية

المجديرة بالدراسة في إطارها السوسيوثقافي، منها: "... من امتلأ بطنه خاف منه الضرر، فليضع يده عليه، ويقول الليلة ليلة عيد ورضي الله عن سيدني أبي عبد الله القرشي، فإنه لا يضره مجرب صحيح.."

ومنها: "فائدة لدفع ورم الأسنان، ولكي يثبت اللحم على الأسنان ويচقلها يؤخذ المصاصحة ومثله من العسل يطبخان حتى لا يبقى إلا العسل، ويستاك به في طنوفة من دعوة على الريق، أو يستاك بالشب اليماني في الصوف المودح.."

ومنها: "لجميع أورام الجسد يسحق السنوج ويتعجن بالخل ويربط عليه وكذلك أورام الإبط وبين الفخذين..."

إن هذه التفاصيل النصية، لها أهمية سوسيو ثقافية قصوى، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.. فنحن بإزاء نخبة مثقفة حريصة على مادة الكتابة، وشحيرة في استعمالها، وفضولية في القول في جميع الميادين العلمية بالشكل الذي تقتضي به ميدان الطب دون احتراس.. وكأنما نحن بإزاء ثقافة موسوعية كاسحة لا وجود فيها للشخص، ثم إننا نسجل ندرة المصادر الطبية في اللحظة المدروسة، وهذا أمر معروف إذا ما قابلنا بين العلوم الشرعية واللغوية، والعلوم الطبية، والرياضية، والكيميائية، والهندسية، التي كانت شبه غائبة..

إن هذه النسخة، إذن، ناطقة بمعطيات حضارية لافتة للنظر.. وستكون أكثر فائدة لو حصلت هناك دراسات مونوغرافية شاملة للتسفيير والنساخة والزخرفة وغيرها من المهام الوراقية حسب البلدان والصور، بالشكل الذي صنعه المنوني رحمه الله في تاريخ الوراقة المغربية³⁴.

شرح عقيدة السنوسي لمحمد بن عمر بن إبراهيم التلمساني³⁵.

وهو الكتاب الأول ضمن مجموع، أوله: "ويقول عبد الله تعالى محمد بن عمر بن إبراهيم التلمساني غفر الله له ولوالديه وأحبه بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

الحمد لله المنفرد بوجود الوحدانية في الذات والصفات والأفعال الذي تنزعه عن الشريك والشبيه والنظير والمثال، وبعد فقد سألهي بعض المحبين شدد الله قلبي وإياهم بأنوار اليقين..."

وآخره: "...هذا آخر ما قصدته من هذا الشرح المبارك المفيد، فنسأله سبحانه أن ينفعنا به دنيا وأخرى على من اعنى به من إخواننا المؤمنين، وأن يجعلنا بفضله مع الشيخ ومع سائر الأحبة في أعلى عليين بجاه مولانا وسيدنا ونبيينا محمد صلى الله عليه وسلم.."

وقد كتب هذا الكتاب بخط الكتاب بخط مغربي دقيق، وكراريسه خماسيات (أي أن كل كراسة منها مكونة من خمس صحائف مزدوجة)، قياسه 21 x 15 سم ، وعدد أوراق المجموع الذي يوجد فيه أربعين ورقة، غلافه أصيل ذو لسان يمتد في دفته اليسرى، وأركانه مزخرفة بشكل هندسي ، وتتوسط الجلدة الأصلية للسفر ترجمة مترجمة في دفتريه اليمنى واليسرى. أما تركيب صفحاته فهو منسجم مع القاعدة المتعارف عليها في دول المغرب العربي من تدرج من الطرة الداخلية، ثم العليا ثم الخارجية ثم السفلى... أما الزخرفة النصية فلا تكاد تتجاوز بعض التغييرات اللونية في كتابة بعض الكلمات ... وقد وجدت في طرر النص

المدروس بعض الهوامش النصية من مثل هذه الأبيات التي وقفت عليها في نهاية الكتاب:

يا ناظرا في الخط كيف صورا
ادع لنا يا سيدى بالغفره
فإن بقي في الخط شيء فاعدلا لأنني كتبته مستعجلـا
وإن وجدت عيبا أو تصحيحا أصلحه يا أخي وكن طريفا
أما مادة الكتابة في المجموع كله فهي الورق القماشى، وذلك لصموده أمام
حدثان الدهر وظروف الصيانة الرديئة الموجودة في مكتبة تيدسي.. وملمسه اللين
الذى ينزع عن الانكسار والتآكل.

كتاب تبصرة الحكام في أصول الفقه ومناهج الأحكام³⁶ لإبراهيم بن

علي المشهور بابن فردون: وهو أيضاً كتاب ضمن مجموع، جاء في أوله برنامج الكتاب وهي عادة مشرقية في ضبط المحتويات قلماً نجدها في مخطوطات الغرب الإسلامي. وكتبت في البرنامج عناوين الفصول والأبواب .

ويليه في المجموع كتاب العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة عبد الرحمن بن محمد الشعالي، ومنظومة في الفرائض لأحمد بن سليمان الجزولي، أوله: "قال الشيخ الإمام المتفنن صدر المدرسين وعهدة المستفيدين وموضع الدلائل وكاشف غوامض المسائل القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي الشهير بابن فردون اليعمري المدري برد الله ضريحه... أما بعد، فإن الله أكمل بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم دينه القوم وهى به من شاء على الصراط المستقيم وأسس شرعه المطهر على أحسن الطريق وأحكم القواعد وشیده بالتقوى والعدل..."

وآخره: "كمل تبصرة الحكام في أصول الفقه ومناهج الأحكام بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه الجميل منه الكريم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآل وصحبه وسلم تسليما..."

وجاء في حرد متنه في شكل مثلث: "والحمد لله رب العالمين اللهم صل على سيدنا محمد وآلها وصحبه وأزواجه وذراته وتابعيه إلى يوم الدين عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته آمين...".

وكتب النسخة بخط مغربي دقيق وملون، مقاييسها 32 x 23 سم، واستعملت في ترقيمها وسيلتان للترقيم؛ فهناك أولاً التعقيبة المعهودة فيأغلب المخطوطات ، وهناك إلى جانبها ترقيم عددي في الركن الأعلى من كل صفحة. وقد حافظ الجموع على تسفيره الأصلي الذي يحيل على طريقة تسفير الكتب في بلدان المغرب العربي، فقد أفادنا أحبابنا القول في هذا الباب ، ولا نعدم في التاريخ كتاباً جليلة في هذه الصنعة³⁷

وصورة هذا الغلاف دفتان سميكتان مكسوتان بجلدة رقيقة مرشومة بتزاويق هندسية، وهناك في كل جهة من الدفتين ترتبة بنية اللون، وأركان مذهبة، ولسان في الدفة اليسرى. ومن جهة أخرى ، لاحظت أن الجموع مكون من سداسيات؛ وهي الكراريس المكونة من ست صحائف مزدوجة . وعدد أوراقه 450 ورقة، أي ما مجموعه خمس وسبعين كراسة ورقية.. أما مادة الكتابة فهي ورق خشبي³⁸ سريع التدهور، الأمر الذي يفسر لنا حجم الضرر الذي لحق بالمخطوط في صورته العامة.

وفي إطار التركيب نقول بشكل عام إن كل المخطوطات المدروسة قد كتبت على مادة الورق وهي المادة التي استعملت في كل أقطار العالم العربي بعد استعمال مادة الرق في القرون الهجرية الثلاثة الأولى لاسيما وأن العرب هم أول من أدخل صناعة الورق إلى إسبانيا وببلاد الروم .

ثم إننا نلاحظ أن كل المادة المدروسة قد كتبت بخطوط مغربية مختلفة عن الخطوط المغربية الفاسية أو السوسية أو البدوية كما هو الأمر بالنسبة للنسخة الأصلية من عقيدة السنوسي التي تقترب من الخط التبكتي، وكما هو الأمر أيضا بالنسبة للخط الذي كتب به نسخة "الجزائرية في العقائد الإيمانية" الذي تظهر في هجانته الصحراوية والمغربية بقايا آثار الخط الأندلسي... ونلاحظ أيضا أن كل النسخ مزودة في ترقيمها بالرقص، وهذا أمر مأثور في كل بقاع العالم العربي، إلا أنها نلاحظ أن هناك نسخة من المادة المدروسة وهي "تبصرة الحكماء..." قد استعمل فيها نظامان للترقيم ؛ التعقيبة ،والعد بالأرقام، وهذا الأمر مأثور فقط في المخطوطات المكتوبة بالحرف اللاتيني³⁹ مما قد يعني أن ناسخها كان على معرفة بخصوصيات المخطوط الإفرينجي أو الرومي .

ونلاحظ من جهة أخرى سيطرة الخمسيات Quinions في صناعة الكراريس على أغلب المادة المدروسة. ووجود الخمسيات بكثرة في تراثنا المخطوط أمر سبق أن أكدته المستشرق الفرنسي المشغل بالتراث الإسلامي " فرانسوا ديروش"⁴⁰ .

وبخصوص تركيب الصفحات la mise en page فنحن نلاحظ احترام كل صحائف المادة المدروسة لقياسات الهوامش المتعارف عليها والمذكورة آنفا ، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت صناعة المخطوط توظف المسطرة في تعين المساحة المكتوبة. ولا نكاد نتبين آثار الخزم⁴¹ في النسخ المدروسة، وهذا يؤكد احتمال عدم استعمال هذه التقنية في تراثنا العربي الإسلامي.

أما بخصوص الترتيب l'imposition فلم ألاحظ أبدا آثار التماسك على إحدى الصحائف المزدوجة للأسفار المعنية، ويفضي بنا هذا إلى القول إن الكراريس كانت تطوى وتقطع قبل أن تكتب من طرف الناسخ .

أما بخصوص النمنمة والزخرفة في هذه المادة فهي شبه غائبة لأن هذه النسخ هي مخطوطات عادية وليس خزائية أو ملكية والمادة مفتقدة أيضا للهوامش الذاتية الشاردة والهوامش النصية التي هي ذات أهمية قصوى في تعقب أصل المخطوط من مثل الإجازة، والتحبيس، والتناول، والسماع، وعقود البيع والشراء ...

وبالنسبة للفوائد التي وقفت بها في صغرى السنوسى فهي تؤكد الصورة الأركيولوجية القيمة التي تضاف إلى الخطوط على أساس أنه ليس فقط محتوى صميمها للمعرفة، وإنما هو بالأساس قطعة أثرية شاهدة على حضارة بائدة ..

الهوامش :

1. تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ترجمة مصطفى طوي، منشورات الخزانة الحسنية بالرباط: 139 م ص: 2003

المجلة الجزائرية للمخطوطات العدد : 11 / 2014م

2. قال عنها المختار السوسي رحمة الله: " ورأيت بعضها من الكتب التي أخرجت إلينا متصفاً ، فرأيت منها كتاباً كانت تعداد من النوادر الغربية .. وقد قيل لي إنها تقارب ألف دفتر.." سوس العالمة ، المختار السوسي مطبعة فضالة الحمدية 1380 هـ ص : 173
3. سوس العالمة ص : 148
4. لم أتوقف في زيارة المكتبة على عهد فقيهها الأسبق الحاج العربي الأنباري التيدسي بالرغم من سفري إلى قرية تيدسي وإلى الزاوية تحديداً ، ولم أتمكن من زيارتها إلا بعد استعانتي بمعارف قيمها الفقيه المصطفى بن العربي التيدسي .
5. فقيه مدرسة إيغلالن بسوس التي تعد مكتبتها من كبريات خزانن هذا القطر فقد كانت تعد دفاترها بألف سفر إلى حدود منتصف القرن العشرين أي في الزمن الذي مات فيه مسعود الوفقاوي رحمة الله .
6. المعسول المختار السوسي ، مطبعة النجاح ، الدار البيضاء : 1960 م ج : 1 ص : 68
7. القرآن الكريم، سورة الشعراء الآية: 226.
8. وثيقة موجودة عند الفقيه المصطفى بن العربي التيدسي
9. حقيقته الباحثة نجا أبوية في إطار رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب .
10. المخطوط رقم : 817
11. المخطوط رقم : 800
12. المخطوط رقم : 226
13. المخطوط رقم : 70
14. المخطوط رقم : 87
15. المخطوط رقم : 243
16. المخطوط رقم : 205
17. المخطوط رقم : م 206 الكتاب : 1
18. المخطوط رقم : م 206 الكتاب : 5

المجلة الجزائرية للمخطوطات العدد : 11 / 2014م

19.المخطوط رقم : 389

20.أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي فاضل مالكي من قبيلة زواوة . كانت إقامته بالجزائر توفي سنة 884 هـ .. الأعلام للزركلي بيروت ط: 8 ج : 1 ص: 160.

21.ولد ونشأ بالمدينة لكن أصله مغربي الأعلام ج : 1 ص: 52

22.هو عالم تلمسان في عصره وصالحها ت : 895 هـ 1490 م

23.معجم مصطلحات المخطوط العربي (قاموس كوديكولوجي) أحمد شوقي بنين ومصطفى طويبي، منشورات الخزانة الحسنية الرباط ، الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة 2005 ص : 302.

24.هي عملية الانتساخ والتصحيح والتفسير وسائر الشؤون المكتبية والدواوين بلغة ابن خلدون في المقدمة دار الكتب العلمية،بيروت ،لبنان: 1413هـ 1993م ص: 334

25.عادة ما تكون الطرة الداخلية petit fond هي الطرة الصغرى ضمن طرر النص ،تليها طرة الرأس ثم الطرة الخارجية وأخيرا طرة الذيل أو الطرة التحتانية بتعبير الفاعي في كتابه : "حلية الكتاب "

26.يقصد بالنسخة في علم المخطوطات كل ماكتب في المخطوط وليس من النص بمفهومه الدقيق. ويقابلة باللغة الفرنسية مصطلح : transcription

27.هما إمامان لمسجدين بأكادير ، وطالبان باحثان درسا عندي في السنة المنصرمة مادة الفهرسة، وأنجذرا برفقة الطالب الحسين أبي الوقار عرضا تحت إشرافي عن خزانة تيديسي الواقع والآفاق ، جامعة القرويين ، كلية الشريعة، سلك ماستر الشريعة "المذهب المالكي تراثه وأصوله وآفاق الاجتهاد فيه" . السنة الجامعية: 2006 - 2007 م ..

28.كلمة الخط المغربي عامة تطبق على كل خطوط المغرب العربي. فنحن نقول : خط مغربي جزائري، وخط مغربي تونسي، وخط مغربي صحراوي، وخط مغربي فاسي، وخط مغربي سوسي إلخ ..

29.المخطوط رقم : 206

30.المخطوط رقم : 203

Les Manuscrits. Alphonse Dain- Les belles lettres : 31.ينظر
– Troisième édition – Paris 1975 P169.

32.المخطوط رقم : 206

33.هي لوح تلصق به خيوط على عدد السطور المطلوبة، وتنساق فيما بينها حتى تكون متساوية الأبعاد، ثم يوضع فوقها الورق العني ، ويضغط عليه باليد حتى ترسم فيه السطور الملصقة على المسطرة والمسطرة أجود ما تكون من الأبنوس ومن البقس .. معجم مصطلحات المخطوط العربي قاموس كوديكولوجي ، أحمد شوقي بنين ومصطفى طوي ط: 3 ص : 332 .

34.صناعة المخطوط العربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة ، منشورات كلية الآداب بالرباط: 1991م . وهو مونوغرافية فريدة من نوعها في أسمى الوراقين في الفترة المذكورة ، حبذا لو صنعت على غراره مونوغرافيات أخرى لكل البلدان الإسلامية وفي جميع العصور حتى يتسعى لعلماء المخطوطات الارتكاز على منطلقات علمية دقيقة .

35.محمد بن إبراهيم بن عمر بن علي .. (توفي سنة 897 هـ 1492 م) كان من تلامذة محمد بن يوسف السنوسي التلمساني إذ لازمه وصنف في مناقبه كتاب : " المواهب القدوسية في المناقب السنوسية " .. الأعلام ، ج: 5 ص : 301.

36.النسخة رقم : 243 وهناك نسخة أخرى انتهت من المكتبة إلى الخزانة الناصرية نسخها محمد بن أحمد الحزولي المراكشي

37.ينظر بهذا الخصوص: التيسير في صناعة التسفيير ، لبكر بن إبراهيم الإشبيلي ، مدريد 1960 ، والسفلياني ، صناعة تسفير الكتب وحل الذهب ، فاس 1919م.

38.يعكن التمييز بين الورق الخشبي والورق القماشي بسهولة بواسطة الملاحظة الأولية لمادة الكتابة ؛ فالورق الخشبي عادة ما يكون ضعيفاً من مادة السيلولوز وهو لذلك يكون سريع التآكل والتدهور ويكون ملمسه خشنا وقابل للانكسار ، أما الورق القماشي فهو

بخلاف ذلك غني بمادة السيلولوز ، وهو لذلك يكون شديد المقاومة والصمود ، ويكون ملمسهلينا ..

39. ينظر التفاصيل الإجرائية من كتاب: "مدخل إلى علم المخطوط" جاك لومير، ترجمة مصطفى طوي ، منشورات المزانة الحسنية مراكش : 2006 م ص: 277
the codicology of the islamic manuscripts . Al Furquàn . 40 Islamic Heritage foundation London 1995 p 29

41. الخزم أنواع كثيرة؛ منها خزم التجليد، وخزم التسطير، وخزم صناعة الملزمة، وخزم تركيب الصفحات .. ينظر : معجم مصطلحات المخطوط العربي .. بنين وطوي، ص: 145.